التبيين

لمصادر تأويل المعبرين

تأليف

أنْوَرْ بِنْ مَحْمُود الرِفْاعي

Anwar bin Mahmoud Alrefaei

التبيين

لمصادر تأويل المعبرين

واختلاف المفسرين

في تأويل الكريم يوسف

بين

الوحي والظن واليقين

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .. أما بعد:

بداية الأمر لفتَ انتباهي أحد الكتاب عندما قال: إن تعبير المنامات ظن لا يقطع ولا يُجزم به!! ثم استدل على مكتوبه بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ فوقع في نفسي أن هذه المنزلة تصح أن تكون منزلة من هم دون يوسف ودون غيره من الأنبياء، أما هو فلا أظن ذلك في حقه؛ ودار في ذهني اعتراض فحواه: لو كان تعبير يوسف للمنامات من قبيل الظن فماذا سيكون تعبير غيره ممن هم دون الأنبياء وهكذا ممن هم دون العلماء الذين هم ورثة الأنبياء؟ وتسلسل الأمر في ذهني حتى بلغ أن تعبير يوسف إن كان من قبيل الظن (الشك) فتعبير دونه سيكون من قبيل الكذب؛ لأننا لو جعلنا تعبيره من قبيل الظن مثل غيره لجعلناه وإياهم في المنزلة سواء، وهذا معدوم بدلالات القرآن الكريم التي بينت علو منزلته في هذا الشأن حتى ظن بعضهم بتفرده بمنزلةٍ عليةٍ فيه دون غيره من سائر الأنبياء وليس كما ظنوا!! – إذ لا دليل واضح صريح بتفرده في هذا الشأن؛ ومن نظر في كتب السنن كالبخاري ومسلم لوجد فيهما كتاب خاص في الرؤيا فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يعبر المنامات لأصحابه، وكان يقول لهم: (من رأى رؤيا فليقصها أعبرها له) ولم يعلم أنه أخطئ في عبارة قط –

وهنا قررت ترك إعمال الذهن والركون إليه والاعتماد عليه بالتحاليل الحكمية للوصـــول للنتيجة المطلوبة في مسـألتي، وبدئ البحث في المصـادر العلمية التي دونتها أقلام أصـحاب الرسـوخ في العلمِ والفهمِ، فاسـتعنت بالله المعين وعليه جرى القلم حسـب الخطة الفهرسـية التالية:

- اختلاف العلماء في تفسير يوسف عليه السلام على ثلاثة مذاهب ٦
- البحث والدراسة ٧
- مناقشة المذهب الأول : أنه ظن ٨
- أنواع الظن في القرآن الكريم ٨
- ضوابط التفريق بين نوعي الظن في القرآن الكريم ١٠
- ترجيح نوع ظن الكريم يوسف في قوله : { وقال للذي ظن أنه ناج منهما }... ١٤
- مناقشة المذهب الثاني : أنه وحي ١٦
- مبحث مع آية : { قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما به قبل أن يأتكما }..... ٢٠
- مبحث مع قوله تعالى : { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِـرُونَ }... ٢٣
- مناقشة المذهب الثالث : أنه علم ٣١
- علاقة العلم والوحي ٣٣
- علاقة العلم والظن ٣٤

– تعارض العلم والظن	٣٥
– جواز الخطأ في الظن	٣٨
– التفسير الفطري (الإلهام)	٤٢
– التفسير التوسمي (الفراسة)	٤٣
– نماذج من فراسة العلماء	٤٧
– الفراسة ليست مصدراً للأحكام الشرعية	٤٨
– الفرق بين الفراسة والظن	٥٠
– الفرق بين الفراسة والالهام	٥١
– طبقات المفسرين المصدرية	٥٢
– الخاتمة	٥٦

وبهذا القدر اكتفيت مع تمسكي بالاختصار في المكتوب والاكتفاء بالمطلوب، ولو من كل بحر قطرة ومن كل بستان زهرة، فإن وفقت للصواب فهو توفيق الله تعالى لي ، وإن كان غير ذلك فهو بسبب جهلي وقلة حيلتي ، وعلى الله توكلت وإليه أنيب

كتبه

أنور بن محمود الفاعي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه

٢٧ / ٤ / ١٤٤٠ هـ

اختلاف العلماء
في تفسير الكريم يوسف عليه السلام

بعد البحث والنظر في كتب الراسخين في العلم رأيت تصنيفهم لتفسير يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم عليه أتم الصلاة وأزكى التسليم للرؤيا على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : أن تفسيره مبني على الظن

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ !! والشاهد من الآية عندهم في قوله : ﴿ ظن ﴾

المذهب الثاني : أن تفسيره مبني على الوحي

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ زاد بعضهم بقوله : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾

المذهب الثالث : أن تفسيره مبني على العلم

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقول أبيه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقوله عن نفسه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

البحث والدراسة

كنت قد بينت شيئاً من ذلك في رسالة كتبتها في الخامس عشر من شهر ذي الحجة لسنة ألف وأربعمائة وتسعة وثلاثين من السنة الهجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، الموافق للسادس والعشرين من أغسطس لسنة ألفين وثمانية عشر من التاريخ الميلادي الذي يستخدمه أعداء الإسلام ، وإنما ذكرني بهذا التاريخ أن في يومنا هذا ٣١ من شهر ديسمبر لسنة ٢٠١٨ تقام الاحتفالات والمهرجانات وتوزع التهنئات والتبريكات في الكثير من بلاد المسلمين ويتناقل ذلك العديد من أفراد مجتمعاتنا الإسلامية كظاهرة لظهور التثليث في بلاد الإسلام بسبب جهل وتخلف العديد من أهله وإنا لله وإنا إليه راجعون

وكان مضمون ما كتبته حول خلاف العلماء في جزئية من تفسيره لرؤيا عزيز مصر وهي في قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ومناقشة قول من يقول إن هذه الجزئية عبرها من الوحي وعلم الغيب وليس من علمه بالتعبير ، وانتصرت لخلاف قولهم من خمسة أوجه مسطرة بتدليلات وتعليلات معتبرة والحمد لله وعلنا ننقلها في مبحثنا هذا تحت الفصل المناسب له بإذن الله تعالى .

ولكن الوضع هنا مختلف بعض الشيء عن مسألتي السابقة ؛ فإن المذاهب الثلاثة التي سبق الإشارة إليها كلها تعتمد على أدلة تم ذكرها ، والدليل لا يرد ولكننا نفرق بين الدليل وبين الاستدلال وعلى هذا التفريق تقوم قائمة الترجيح بين الأقوال المختلفة ، وقلت : (المختلفة) ولم أقل : (المخالفة) ؛ لأن الأقوال المخالفة خالفت النصوص ، بخلاف الأقوال المختلفة فإنها استدلت بالنصوص ولكنها اختلفت في مفهومها وتنزيلها ، وهذا ما سنقوم بمناقشته هنا إن شاء الله تعالى .

مناقشة المذهب الأول

المذهب الأول : أن تفسيره مبني على الظن

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ !! والشاهد من الآية عندهم في قوله : ﴿ ظن ﴾

النقاش :

لاشك عندنا أنه ظن ذلك ؛ لأن الآية نصت : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ ﴾ ولكن هل ظن هنا بمعنى الشك أم بمعنى اليقين ؛ فأن الظن بمنزلة بين منزلتي الشك واليقين ويأتي ويراد به القرب إلى أحدهما ويأتي ويراد به عين أحدهما ، واختلفوا في تحديد نوعية الظن في هذه الآية على مذهبين اثنين :

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٢٢٧) :

وفي هذا الظن قولان : أحدهما : أنه بمعنى العلم قاله ابن عباس ، والثاني : أنه الظن الذي يخالف اليقين قاله قتادة اهـ

قلت : وحاصل هذا الخلاف يعطينا إشارة واضحة أن الظن كلمة تحتمل أكثر من معنى فيأتي ويراد به الشك ويأتي ويراد به اليقين ، وأمثلة الظَّنَّيْنِ في القرآن كثيرة

أولاً : بعض أمثلة الظن الذي هو بمعنى الشك :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾

ثانياً : بعض أمثلة الظن الذي هو بمعنى اليقين :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾

وقد جاء الظَّنّان في آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾

فالظن الأول يراد به عدم العلم بالشيء أو عدم توقعه ، والثاني يراد به الاعتقاد الخاطئ

فائدة جانبية ذات صلة :

قال الإمام ابن حزم في الاحكام (٧ / ٣٨٩) :

فنص الله تعالى كما نســـمع على أنه أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وأن المؤمنين لم يظنوا قط ذلك وأن الكفار لم يحتسبوا قط ذلك ، فثبت يقينا بالنص في هذه الآية أن أحكام الله عز و جل جارية على خلاف ما يحتســـب الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ، والقياس إنما هو يحتسبه القائسون لا نص فيه ولا إجماع ، كظن المالكي أن علة الربا الإدخار في المأكولات في الجنس ، وظن الحنفي أنها الوزن أو الكيل في الجنس ، وظن الشـــافعي أنها الأكل في الجنس وهذه كلها ظنون واحتسابات فصح أن أحكام الله تعالى تأتي بخلاف ما يقع في النفوس فهذه الآية أبين شيء في إبطال القياس والحمد لله رب العالمين اهـ

ضوابط
في التفريق بين نوعي الظن
في القرآن الكريم

قال الإمام القرطبي في الجامع (١٨ / ٢٧٠) :

قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك . وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك . وقال الحسن في هذ الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل اهـ

وقال الإمام القرافي في الفروق (٣ / ١١٠) :

من العمومات نحو المشركين وأسماء الأجناس من الجماد والنبات أو الحيوان نحو الأسد أو من قبيل الأعراض نحو العلم والظن والألوان والطعوم والروائح فهي الظواهر فيجوز إطلاق العلم ويراد به الظن مجازا كقوله تعالى فإن علمتموهن مؤمنات أي ظننتموهن فإن الإيمان أمر باطن لا يعلم ولكن تدل عليه ظواهر الأحوال فيظن وإطلاق الظن ويراد به العلم كقوله تعالى وظنوا أنهم مواقعوها أي قطعوا وعلموا هذا هو المقرر في أصـــول الفقه وفي أبواب الأيمان والطلاق وغيرهما من كتب الفقه عند الفقهاء اهـ

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله (١ / ٢٥٤) :

قال ابن جرير رحمه الله : العرب قد تسمي اليقين ظنا، والشك ظنًا، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضدّه، كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفي مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُم في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

يعني بذلك تيقنوا بألفي مدجج يأتيكم، وقال عَمِيرة بن طارق :

بِأنْ يَعْتَزُوا قومي وأقعُدَ فيكم ... وأجعلَ مني الظنَّ غيبا مرجّما

يعني : وأجعل مني اليقين غيبا مرجما ، قال : والشـواهد من أشـعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصـــر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشـار، حدثنا أبو عاصـم، حدثنا سـفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يقين، أي : ظننت وظَنوا ، وحدثني المثنى، حدثنا إســحاق، حدثنا أبو داود الحَفَرِيّ، عن سـفيان عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، قال : كل ظن في القرآن فهو علم . وهذا سند صحيح اهـ

وقال الإمام أبو البقاء في الكليات (١ / ٨٢٩) :

عن مجاهد قال : كل ظن في القرآن فهو يقين وهذا يشكل بكثير من الآيات اهـ

قلت: مشكل؛ لأن الكثير من نصوص القرآن الكريم تدل أن الظن يأتي ويراد به غير ذلك ، والظاهر أن مجاهداً يريد ظن الآخرة وليس ظن الدنيا كما سـبق في كلام آخر له ونقله الإمام القرطبي رحمه الله كما سبق معنا

وقال ابن جرير في جامع البيان (٢٣ / ٥٨٥) :

حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال ؛ ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ قال : ما كان من ظنّ الآخرة فهو علم اهـ

قال الإمام الشوكاني رحمه الله "فتح القدير " (٥ / ٣٩٧) :

قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك ، قال مجاهد : ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شـك ، قال الحسـن في هذه الآية : إن المؤمن أحسـن الظن بربه فأحسـن العمل للآخرة وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل ، قيل : والتعبير بالظن هنا للإشـــعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبا اهـ

قال الإمام الماوردي رحمه الله في النكت والعيون (٦ / ٨٣) :

﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي علمت ، قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك ، وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك .

الثاني : ما قاله الحسن في هذه الآية ، أن المؤمن أحسن بربه الظن ، فأحسن العمل ، وأن المنافق أساء بربه الظن فأساء العمل اهـ

وقال الإمام أبو البقاء في الكليات (١ / ٨٢٩) :

وقال الزركشي : للفرق بينهما ضابطان في القرآن أحدهما أنه حيث وجد الظن محمودا مثابا عليه فهو اليقين وحيث وجد مذموما متوعدا عليه بالعذاب فهو الشك والثاني أن كل ظن يتصل به { أن } المخففة فهو شك نحو ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول ﴾ وكل ظن يتصل به { أن } المشددة فهو يقين كقوله تعالى ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ والمعنى في ذلك أن المشددة لتأكيد فدخلت في اليقين والمخففة بخلافها فدخلت في الشك وأما قوله تعالى ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله ﴾ فالظن فيه اتصل بالاسم والظن بالظاء في جميع القرآن لكن قد اختلفوا في قوله تعالى { بضنين } اهـ

وقال الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٩ / ١٣٢) :

وأُطلق الظن في قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه ﴾ على معنى اليقين وهو أحد معنييه ، وعن الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك .

وحقيقة الظن : عِلم لم يتحقق ؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعدُ ولم يخرج إلى عالم الحس ، وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك . وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقن إطلاقاً حقيقياً . وعلى هذا جرى الأزهري في (التهذيب) وأبو عمرو واقتصر على هذا المعنى ابن عطية . وكلام (الكشاف) يدل على أن أصْل الظن : علم غير متيقن ولكنه قد يُجرى مُجرى العِلْم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام ، وقال : يقال : أظن ظناً كاليقين

أن الأمر كَيت وكَيت ، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازاً . وهذا أيضاً رأي الجوهري وابن سيده والفيروز آبادي ، وأما قوله تعالى : ﴿ إن نظن إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ فلا دلالة فيه لأن تنكير ظناً أريد به التقليل ، وأكد ، بـــــ ﴿ ما نحن بمســـتيقنين ﴾ فاحتمل الاحتمالين اهـ

خلاصة ضوابط التفريق بين نوعي الظن :

الضـــابـط الأول	ظن الدنيا شك	ظن الآخرة يقين
الضـــابـط الثاني	ظن الكافر شك	ظن المؤمن يقين
الضـــابـط الثالث	الظن المذموم شك	الظن المحمود يقين
الضـــابـط الرابع	الظن المتصل بـــ [إنْ] المخففة شك	الظن المتصل بـــ [إنّ] المشددة يقين

الترجيح
في نوع ظن يوسف عليه السلام
في قوله تعالى:
﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما﴾

وفي ضوء ما سبق فالراجح هو قول ابن عباس رضي الله عنه أن ظن يوسف بمعنى العلم؛ لأنه مؤيد بالنص؛ بقول يوسف عن نفسه:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾

فهذا الكلام مليء بالجزم والقطع والشاهد منه نسبة معرفته بما يؤول إليه شأن الفتيين إلى تعليم ربه له، والله تعالى لا يُعَلِّم نبيَه الظن، والذي علمه ربه هو علم التأويل كما في الأدلة التي سقناها قبلُ وهي:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

وقوله أبيه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

وقوله عن نفسه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

وهو ترجيح الكثير من العلماء ومنهم:

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٢ / ٢٧٨):

والظن هنا مستعمل في القريب من القطع؛ لأنه لا يشك في صحة تعبيره الرؤيا. وأراد بذكره ذكر قضيته ومظلمته، أي اذكرني لربك، أي سيدك. وأراد بربه ملك مصر اهـ

وقال أبو المظفر السمعاني في تفسير القرآن (٣ / ٣٣):

قوله تعالى : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ معناه : أنه (أيقن) اهـ

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٢) :

﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ أي قال يوسف والظان هو أيضا يوسف ، والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الساقي وهلاك الخباز هكذا قال جمهور المفسرين ، وقيل الظاهر على معناه لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنا والأول أولى وأنسب بحال الأنبياء ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على كل شيء من علم الغيب كما في قوله : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ الآية اهـ

وقال البقاعي في نظم الدرر (٤ / ٤٣) :

ولما كان كل علم بالنسبة إلى علم الله عدماً ، عبر عن علمه بالظن ، ويمكن أن يكون الظن على بابه لكونه قال ما مضى اجتهاداً بقرائن فيؤخذ منه أنه يسوغ الجزم بما أدى إلى ظن ، فقال : ﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ للذي ظن ﴾ مع الجزم بأنه أراد به العلم لقوله : ﴿ قضى الأمر ﴾ ، ويجوز أن يكون ضمير ﴿ ظن ﴾ للساقي ، فهو حينئذ على بابه اهـ

وقال الإمام الطبري رحمه الله

عن قتادة: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وإنما عبارة الرؤيا بالظنّ فيُحِقُّ الله ما يشاء ويُبطِل ما يشاء.

وهذا الذي قاله قتادة من أنَّ عبارة الرؤيا ظنٌّ، فإنَّ ذلك كذلك من غير الأنبياء، فأما الأنبياء فغيرُ جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن ثم لا يكون، أو أنه غيرُ كائن ثم يكون، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرتْ عنه أنَّه كائن أو غير كائن؛ لأنَّ ذلك لو جاز عليها في أخبارها لم يؤمن مثل ذلك في كلِّ أخبارها.

وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها سـقطتْ حُجُّتها على مَن أُرسِـلت إليه، فإذا كان ذلك كذلك كان غير جائز عليها أن تخبر بخبر إلاَّ وهو حقٌّ وصِـــدق، فمعلوم إذ كان الأمر على ما وصفت أنَّ يوسف لم يقطع الشهادة، فبين إذًا بذلك فَسَادَ القول الذي قاله قتادة في معنى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اهـ

مناقشة المذهب الثاني

المذهب الثاني : أن تفسيره مبني على الوحي

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

النقاش :

قال القرطبي في الجامع (٩ / ١٩٤) :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ [ظن] هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظن يوسف نجاته ؛ لأن العابر يظن ظناً وربك يخلق ما يشاء ؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي ، وإنما يكون ظنا في حكم الناس ، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع اهـ

وقال أبو حفص الدمشقي (١١ / ١٠٨) :

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : لَمَّا سَمِعَا قول يوسف صلوات الله وسلامه عليه قالا : مَا رَأَيْنَا شَيْئاً إنَّما كُنَّا نلعَبُ " ، قال يوسف : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

فإن قيل : هذا الجوابُ الذي ذكره يوسف عليه الصلاة والسلام ذكره بناءً على الوحي من عند الله تعالى أو بناء على علم التَّعبير .

والأول باطلٌ ؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما نقل أنَّما ذكره على سبيل التعبير ، وأيضاً قال الله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ ، ولو كان ذلك التعبير مبنيًّا على الوحي ، كان الحاصلُ منه القطعُ واليقينُ ، لا الظنُّ والتَّخمينُ .

والثاني أيضـاً باطلٌ ؛ لأن علم التعبير مبنيٌّ على الظنِّ ، والقضـاءُ : هو الإلزامُ الجزمُ والحكمُ البتُّ ، فكيف بني الجزم والقطع على الظنِّ والحسبانِ ؟ .

والجواب : لا يبعد أن يقال : إنهما سـألاه عن ذلك المنام ، صَـدَقَا فيه أو كَذَبَا ، فإنَّ الله تعالى أوحى إليه أنَّ عاقبة كُلَّ واحدٍ منهما تكون على ذلك الوجهِ المخصوص ، فنزل الوحيُ بذلك الغيب عند ذلك السؤال ، ووقع في الظنَّ أنَّه ذكره على سبيل [التَّعبير] . ولا يبعد أيضـاً أن يقال : إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير . وقوله ﴿ قُضِـيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْـتَفْتِيَانِ ﴾ ما عنى به أنَّ الذي ذكره واقعٌ لا محالة ، بل عنى أنَّ حكمه في تعبير ما سـألاه عنه ذلك الذي ذكره اهـ

وكلام أبي حفص يريد به أن جواب يوسـف عليه السـلام له احتمالين : الأول : أن جوابه للفتيين كان من الوحي وليس له علاقة بالتعبير ، وإنما وافق اخبارهم لهم بحالهم ومعرفته بمآلهم إخبارهم له بالرؤيا فظن أنه من تعبير الرؤيا وليس كذلك ؛ فيوسـف قد علم بذلك حتى وإن لم يريا الرؤيا ، الثاني : أن جوابه للفتيين كان من علم التعبير ، وإنما قدم الاحتمال الأول لأنه الأرجح عنده والله أعلم

قلت : واحتماله الأول بعيد عن الصواب لأمرين :

الأول : لأنه لا يليق بأي معبر من عامة الناس قد سبق علمه بالشيء أن يقصه على الرائي على أنه من علمه بالتعبير فيكون كالمتشبع بما لم يعط ؛ كأن يسمع من رجال الدولة أنه سيتم القبض عليه ثم صـادف أن قص عليه رؤيا معينة فأخبره بما سمع من مآله على أنه من تفطنه بالرؤيا ، وإن كان هذا لا يليق بأي معبر من عامة الناس فهو لا يليق بحال الأنبياء من باب أولى

الثاني : لأن جوابه للفتيين متناسب ومتناسق مع حال رؤياهما ؛ فالساقي رأى أنه يعصر خمرا ، والخباز رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ ﴾ ووجه نجاة الأول وهلاك الثاني مأخوذ من قرائن موجودة في الرؤيا ، فعصر الخمر عمل وظيفي والقيام به في المنام دليل على الرجوع لمراس هذا العمل ونتيجته النجاة ، وحمل الآخر الخبزَ فوق رأسه على نفس حال الساقي وفيه دلالة على النجاة أيضاً !! إلا أن رؤياه تضمنت على قرينة أخرى تدل على هلاكه وهي أكل الطير من فوق رأسه ؛ فمنها أخذ الكريم يوسف هلاكه عن طريق الصلب ؛ وفيه لزومية اعتبار حال الرائي زمناً ومكاناً ؛ ففي زمانهم ومكانهم جرت العادة في صلب أحدهم أن يترك مصلوباً حتى تأكلهم الطير وأول ما تبدأ بأكلهم من فوق رؤوسهم

على أن أساس هذا المذهب ظاهره زيادة بالمدح على من تلقى التعبير عن طريق الوحي ولكنه في حقيقة أمره على خلاف ذلك؛ لعدة أسباب نلخصها بسببين ظاهرين

السبب الأول: أن من تلقى التعبير عن الوحي لا يسمى عابراً بل هو ناقل للتعبير الذي تلقاه وينسب هذا التفسير لله تعالى، ومثله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فقد تضمنت هذه الآية على رؤيا وعبارتها فالرؤيا في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ وعبارتها في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

فهنا لا يقول نبينا علي الصلاة والسلام أنه عبرها بالفتح وإنما يقول : أخبرني ربي وأوحى إلي أنها بشرى بالفتح

السبب الثاني: أننا لو قلنا: إنه يعبر عن طريق الوحي فإن ذلك يلزم منه أنه لو لم ينزل عليه الوحي بتأويلها لجهل حقيقتها وعجز عن تعبيرها!! ومن عرف حقيقة هذا اللازم عرف بطلان هذا المذهب وأن هذا محال في حقه؛ فإن من المتفننين بعبارة الرؤيا ممن هم ليسوا بأنبياء يعبرونها بدون وحي فهل هم أعلم منه ؟

فائدة: ويكون هذا المذهب حق في حال أرادوا بالوحي وحي الالهام وهذا جائز في حق غير الأنبياء وقد ذكر العلماء أنه يقع للمكلفين كقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ويقع لغير المكلفين كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

وهذا الإلهام عبارة عن عون وتوفيق إلهي لمن شاء من عباده ، وقيل : هو شيء يقذفه الله في القلب ، وهو خطاب الملك الموكل بذلك ، والمعنى واحد ، وقد استرسل العلامة ابن القيم في تفصيل هذه المسائل في كتابه الرائع مدارج السالكين (١ / ٤٤) وما بعدها ، وخلاصة ما نريده هنا أن وحي الإلهام حقيقة واقعة لغير الأنبياء وهي على درجات الدرجة العليا أن يسمع الخطاب في أذنه كسماعه لخطاب بني جنسه ، والدرجة الثانية أن يقع الخطاب على الروح ويعي القلب هذا الخطاب ويوفق له ، مع تنبيهات سردها العلامة ابن القيم متعلقة بوساوس النفس وخواطر الشيطان يستشفى منها الفروق بين ذلك

مبحث في قوله تعالى:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

استدل البعض على أن عبارة الكريم يوسف عليه الصلاة وأتم التسليم للرؤيا من قبيل الوحي وليس من ذات الرؤيا المنامية بقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

وقبل الجواب على ذلك أحب أن أنبه بقاعدة مهمة جداً وهي أن وجود الخلاف بين العلماء لا يعني التسليم التام لقول طرف منهم ؛ فقد قال تعالى : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ فوجود الخلاف لا يعني إحقاق قول وابطال آخر بمجرد التعصب أو الميل لقول دون آخر !! بل لابد من التحقيق والترجيح بعد بذل الجهد للوصول للنتيجة المعنية ، وأما مجرد اختيار القول الذي مالت إليه النفس فإنه من الهوى الذي من تبعه تردى

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية هل هذا التنبؤ من أمور الغيب التي تلقاها عن الوحي أم أنه عرف ذلك من خلال رؤياهما (؟) وقد ذكر الخلاف جماعة من العلماء ومنهم الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (١ / ٢٣٧) والمختار الراجح هو القول الثاني ؛ لسببين اثنين :

الأول : أن الرجلان قصا عليه رؤاهما المتضمنة للطعام والشراب فأحدهما رآى الخبز والآخر رآى الخمر ، وبعد أن قصـــا عليه رؤاهم قال لهما : ﴿ لايَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ فالســياق من أوله ســياق الحديث عن الرؤيا وجوابها كما في قوله تعالى قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

وخلاصة ذلك أنهما قالا : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو جاوب على قولهما وقال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي بتأويل رؤياكم التي سألتم عنها : فما دليل من قال إن ذلك في اليقظة ؟

الثاني : أنه قال لهما : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ فنحن نقول : هذا العلم هو تأويل المنامات والدليل قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ومن قال : إنه علم آخر فليخبرنا ما هو ومن أين عرف ذلك .

ومن هنا قال العلماء في تفسير الآية : قوله : ﴿ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أي : في النوم ﴿ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي : في اليقظة ، وقيل في تفســيرها : إن هذا في اليقظة مثل معجزة

عيســـى عليه الســـلام حيث قال : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ قاله الحسن والرازي وغيرهما ، ورجحنا القول الأول للسببين المتقدمين واقتداء بمن رجح ذلك من العلماء ومنهم : المفسر الشربيني في "السراج المنير" (٢ / ٨٧) والطبري في جامع البيان (١٦ / ١٠٠) والسـدي وابن إسـحاق ، والماوردي في "النكت والعيون" (٣ / ٣ / ٣٧) وشـــيخ الإســـلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٢٩٠) و (١٧ / ٣٦٥) والقرطبي (٩ / ١٩١) والشـــيخ محمد ين عبدالوهاب كما في "الدرر الســـنية" (١٩ / ٢٤٧)

هل تعبير

الكريم يوسف عليه السلام لرؤيا عزيز مصر

من علمه بالتعبير أم من علم الوحي والغيب

مبحث في قوله تعالى

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

؟؟

وهذا المقال عبارة عن حوار دار بيني وبين بعض الأفاضـــل ممن بلوا بالتعصـــب وبالرغم أن المسألة التي سأناقشها خلافية إلا أن الاتسام بقبول الحوار والأخذ والرد من أخلاق العلماء ومن آداب طلاب العلم ، وهذا مالم أره في المتعصب المذكور ، وقد أعرضت عن ذكر اسمه ؛ لأن القصـد هو بيان الحق في المسـألة فقط ، ونقلت النقاش هنا لارتباطه في المدخل الذي نحن بصدد طرح المعلومات عنه ، فقلت :

باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد :

لا يختلف أهل الفن في حدود علمي أن الكريم بن الكريم بن الكريم نبي الله يوســـف عليه صلوات الله وأتم التسليم إماماً في الشأن ولكنهم اختلفوا في مصدر تعبيره للمنامات هل هو من علمه بها أم هو من الوحي ؛ لأننا لو قلنا : إن تعبيره لها من الوحي فقد سلبنا منه وصف

العلم بالتعبير ، وإن كان الوحي هو أعلى مقامات العلم ولكن علم التعبير يقوم على التأويل ، ويلزم القائلين إن تعبيره من الوحي أنه لو عرضـــت عليه رؤيا ولم ينزل عليه الوحي بعبارتها لجهل معناها وهذا يعد تقليلاً من قدرته ومكنته وهو ما نحاول الفرار منه برفض هذا المذهب ؛ فإذا كان بعض المعبرين ممن هم ليســوا أنبياء من يعبرون الرؤيا بأصــوب العبارات ومنتهى المهارات دون تلقي ذلك من الوحي بينما هو لا يتمكن منها إلا بنزول الوحي كما يدعي البعض فإن هذا ليس مدحاً له ، ولهذه العلة أبطلنا هذا المذهب وانتصــرنا لكون التأويل من العلم الذي يصيب صاحبه العبارة حسب فهمه وبصيرته ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ففي هذه الآية أن كلاهما أوتي العلم وزاد سليمان بزيادة في الفهم وهذا الفهم بلا شــك ليس من الوحي وإنما من الإلهام والبصــيرة ، وهكذا نقول في علم التعبير فالله تعالى علم يوســـف هذا العلم وأما تعبيره لآحاد المنامات فهذا يعود لفهمه وبصيرته في مقاصدها .

وبعضـهم اختلفوا في تفسـيره لجزئية من رؤيا عزيز مصـر وهي قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فمنهم من قال : هو من تفسير الرؤيا ، ومنهم من قال : بل هو شيء زائد عن الرؤيا فهو من علم الغيب الذي يتلقاه من الوحي !!

والجواب على هذا النزاع أن نقول : الخلاف في ذلك قديم عند علماء تفســـير الآيات قبل متفنني تفســـير المنامات ، فذهب البعض أن ذلك من علم الغيب وليس من تفســـير الرؤيا ومنهم الطبري والقرطبي والنيسابوري والثعلبي وأغلبهم اعتمدوا قول قتادة في ذلك !!

ونحن بمنزلتنا هذه التي لا تؤهلنا للكتابة في مســـائل الخلاف والترجيح بين المختلفين إلا أننا قد أقحمنا أنفســـنا مطمئنين أننا لن ننفرد بقول وعليه فلا رجعة دون ترجيح بلا تعصـــب ،

وتقرير ما ظهر لنا بوضوح دون تقلب ، فأقول : الراجح أن هذا من تفسير الرؤيا وليس من علم الغيب المتلقى عن طريق الوحي ، وقد ظهر لي هذا من عدة أوجه وليس من وجه واحد وهي :

الوجه الأول : من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ فقوله : ﴿ يجتبيك ﴾ أي : يصطفيك ويختارك ، دل على أن علم يوسف في التأويل ليس كعلم غيره فيه ، ولهذا تحتار العقول في إدراك مبلغه في هذا العلم وكيف توصل لما لا يتوصل له غيره من أهل الفن مهما بلغوا من العلم ؛ فالمعبرون يشتركون معه في أصل الصنعة ولكنه ينفرد عنهم بكمالها وعميق أسـرارها ؛ فهو تعلمه من الله تعالى وليس من كتب المعبرين ، وليس من مجرد النظر في أحوال العرف وعادات المعاصرين ، ولا مجرد القياس وطبائع الرائين .

الوجه الثاني : أن عزيز مصر سأل عن رؤيا فالمعروف بديهة أن الجواب إنما يكون تعبيرها ، فكيف نقول : إن الجواب لم يكن تعبيراً وإنما وحياً !! أو أن بعضه تعبيراً وبعضه وحياً ؟ مع أن المتقرر أن جواب الرؤيا هو تعبيرها

الوجه الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فقال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي : أن الجواب سيكون تأويلاً للرؤيا وليس غير ذلك , وأقره الله تعالى وليس في القرآن ما يدل على أن الجواب ليس تأويلاً لها

الوجه الرابع : قول يوسف عليه السلام : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ولو كان يتلقى ذلك من الوحي لقال : (وأخبرتني بتأويل الأحاديث) ولكنه

قال : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ فهنا معلم ومتعلم فالله تعالى علم يوسف عليه السلام التأويل ويوسف عليه السلام هو من أول الرؤيا وليس الله تعالى ، كقوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم ﴾[1] فالله تعالى علمه ذلك ولكن هو من باشر عمل الصناعة وليس الله تعالى ، وهكذا في تعليم يوسف لعلم التعبير فالله تعالى علمه ولكن هو من عبر الرؤيا وليس الله تعالى ، وإن كنا نؤمن أن كل عمل خير فهو ينسب لله تعالى لعموم قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

١() فائدة : قد يتبادر لذهن غافل عن مقصود هذه الآية إشكال حاصله أنه لا وجه لمدح داود بتعلمه لشيء هو مسبوق به وليس من الصعب أيضاً تعلمه في قوله : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ (٨٠) } وذلك أن صناعة الملبوسات موجودة من قبل ذلك ، ويجاب عن هذا أن صناعة الملبوسات التي علمها الله تعالى لنبيه داود هي الدروع الحديدية التي تحصنهم من سهام ونبال وضربات الأعداء ؛ كما في قوله تعالى : { وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وقدر في السرد }

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى : ومن فضله عليه أن ألان له الحديد ، ليعمل الدروع السابغات ، وعلمه تعالى كيفية صنعته بأن يقدره في السرد ، أي : يقدره حلقا ، ويصنعه كذلك ، ثم يدخل بعضها ببعض اهـ

قلت : وهذا واضح في تتمة الآية أيضاً فبعد أن قال : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } قال بعدها : { لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ }

قال قتادة كما في تفسير الطبري (١٨ / ٤٨٠) : كانت صفائح ، فأوّل من سَرَدَها وحَلَّقها داود عليه السلام اهـ

وقال كما في تفسير القرطبي (١١ / ٣٢٠) : قال قتادة : أول من صنع الدروع داود ، وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها اهـ

قال القرطبي (١١ / ٣٢٠) : قوله تعالى : { وعلمناه صنعة لبوس لكم } يعني اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ، درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا (إلى أن قال :) وأراد الله تعالى هنا الدرع ، وهو بمعنى الملبوس اهـ

الوجه الخامس : أن الذين قالوا إن تعبيره من الوحي عللوا ذلك أنه جاء بشـيء زائد ليس في الرؤيا !! وهو العام بعد السابع

والجواب : أن هذا القول منه عليه السـلام إن لم يكن موجوداً في الرؤيا كما يدعون فهو موجودٌ في تأويلها ؛ ففرق بين الرؤيا وبين تأويل الرؤيا !! ومع ذلك نقول : بل هو موجود فيها ومأخوذ منها وبشـكل واضـح أيضـاً !! فالعبرة بقول من ظهر له وليس بقول من خفي عنه ؛ لأن من علم حجة على من لم يعلم ؛ فالذي ظهر له ذلك عنده زيادة علم خفي على من لم يظهر له ذلك ؛ والمتقرر في علم الأصـول أن المثبت مقدم على النافي ؛ لأن المثبت يقول : أعلم ، والنافي يقول : لا أعلم ، كما فصلنا هذه المسألة في شرحنا لمسألة (هل عدم الدليل دليل) في كتابنا (تنبيه الفضلاء على قاعدة الاستدلال بأقوال العلماء) وهو عبارة عن دراسة لقاعدة (أقوال العلماء يستدل لها ولا يستدل بها)

فإن قلت : وأين نجد قول الكريم يوسف عليه الصلاة وأتم التسليم : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فالجواب : أن الرؤيا اقتضـت أن أعوام القحط سـبعة فعلم أن العام الثامن عام خصـب ؛ لأنه لا يصـح نقلاً ولا عقلاً أن يقول لهم : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ويكون العام الثامن أيضاً من أعوام الشدة ؛ فحصر الشدة في السبعة الأعوام المأخوذة من السبع البقرات العجاف قرينة قوية عند أهل الفن أن انتهاء المدة الشديدة دلالة أنه يعقبها دخول مرحلة جديدة معاكسة لذلك

فإن قلت : كلامك مقنع ولكننا لا نقبله حتى تسـتند فيه لأقوال أهل العلم ؛ فإننا لا نقبل القول في القرآن إلا من العلماء وأنت لست منهم لا حقيقة ولا حكماً ولا عرفاً .

قلت : وهل بنيت قولي إلا على قولهم وأسندت ظهري إلا على رشدهم فمنهم أخذت وطورت فكرتي على أساس حروفهم وهاكم أقوال لعلماء الذين قالوا بهذا القول الذي ندين به :

قال الإمام البقاعي رحمه الله في "نظم الدرر" (٤ / ٥٣) :

وكأنه أخذ من انتهاء القحط ابتداء الخصب الذي دل عليه العصر في رؤيا السائل ، والخضرة والسمن في رؤيا الملك فإنه ضد القحط ، وكل ضدين انتهاء أحدهما ابتداء الآخر لا محالة اهـ

وقال العلامة البيضاوي رحمه الله في "أنوار التنزيل" (١ / ٢٩٢) :

ولعله علم ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب والخصب أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم اهـ

وقال العلامة السعدي رحمه الله (١ / ٣٩٩) :

ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب ، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك ؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها يزول به شدتها ، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات ، إلا بعام مخصب جداً ، وإلا لما كان للتقدير فائدة ، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس ، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا ، عجبوا من ذلك وفرحوا بها أشد الفرح اهـ

وقال العلامة السعدي أيضاً في رد هذا القول في "تيسير اللطيف المنان" (صـ / ٤٧٥) :

فإن بعض المفسرين قال : هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه . فالجواب : ليس الأمر كذلك ، وإنما أخذها من رؤيا الملك ، فإن السنين المجدبة سبع فقط ، فدل على أنه سيأتي بعدها عام الخصب ، كثير البركات ، يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين

المجدبة التي لا يزيلها عام خصب عادي ، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة ، وهذا واضح وهو من مفهوم العدد اهـ

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله في "التحرير والتنوير" (١٢ / ٢٨٧) :

وأما قوله : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس ﴾ فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس ، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة ، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر اهـ

وقال العلامة عبدالرحمن البراك في "شرح التدمرية" (صـ / ٢١٤) بعد أن ذكر الآيات من أولها إلى قوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يعصرون ﴾ قال :

فهذا الكلام تفسير للرؤيا اهـ

اعتراض وجوابه :

فإن قال قائل وماذا عن قول النيسابوري (٤ / ٣٦٩) : إنه لا يلزم من انتهاء الجدب الخصب والخير الكثير فقد يكون توسط الحال . وأيضاً في قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ نوع تفصيل لا يعرف إلا بالوحي اهـ

الجواب : نرد عليه من أربعة أوجه :

الوجه الأول : أن ذلك فعلاً لا يلزم وقوعه كما أنه لا يلزم عدم وقوعه ، وإنما رجحه الكريم يوسف لزيادة علم وخبرة عنده ؛ لقوله : ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ فاقتضى هذا العلم بالتعبير معرفة ذلك

الوجه الثاني : أنه لماذا لا نقول أن انتهاء السبع مبشرة بعودة الأمور كما كانت وهذا وضع طبيعي ليس فيه مبالغة بالخصب ، ثم ننظر كيف كان الوضع قبل السبع الشداد ؟ والجواب : كان فيه سبع في غاية الخصوبة حتى أنهم ادخروا منها ما كفاهم لسبع بعدها وكان الناس يأتون من أماكن بعيدة ليأخذوا حصصهم منها ؛ أنتج أن التفسير بعودة المياه لمجاريها وعودة الأمور كما كانت عليه قبل السبع الشداد معناه الدخول بعام قوي الخصوبة

الوجه الثالث : أنه لا غرابة من التفصيل في باب التعبير فهو علم عميق المدى فكيف والمعبر هنا نبي كريم تلقى علم التأويل عن الله تعالى ، وهذا على فرض وجود التفصيل في عبارته وإلا فالقول بوجود التفصيل مجرد ترجيح للاختلاف في قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ فمن رجح أنه من عصر العنب أو الزيت رآه من نوع التفصيل على أنه قد يكون من باب رجوع الأمور لما كانت عليه كما في قوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ فهذا هو حالهم الأصلي ، ومع ذلك فالكثير فسروا ﴿ يعصرون ﴾ بنزول المطر ؛ لأنه قال : ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ فجلعوا هذا الغيث هو العصر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ وهذا أيضاً من رجوع الأمور لوضعها الذي كانت عليه قبل الشداد ؛ لأنهم في سبعم السابغات كانوا في غيث وفير بفضل الله تعالى عليهم

وللعلامة المناوي تفسير عجيب للعصر هنا فقال في "فيض القدير" (٤ / ٢٩٥) : (صلاة الوسطى صلاة العصر) أي : الصلاة الفضلى هي العصر من قولهم للأفضل : أوسط ؛ وذلك لأن تسميتها بالعصر مدحة من حيث إن العصر خلاصة الزمان كما أن عصارات الأشياء خلاصاتها ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ فعصر اليوم هو خلاصة لسلامته من وهج الحارة وغسق الليل ، ولتوسط الأحوال والأبدان بين

حاجتي الغداء والعشاء التي هي مشغلتهم لحاجة الغداء ولتصادم ملائكة الليل والنهار فيها اهـ

الوجه الرابع : **راجع كلام علامة القصيم الشيخ السعدي رحمه الله الذي سبق بدقة وإمعان ففيه زيادة توضيح وتبيان وهو من أنفس الأجوبة على هذا الاعتراض**

مناقشة المذهب الثالث

المذهب الثالث : أن تفسيره مبني على العلم

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقول أبيه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقوله عن نفسه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

النقاش :

وهذا المذهب هو المذهب الحق وهو الجامع بين المذاهب لسببين اثنين :

السبب الأول : لأدلة أصحابه وهي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقول أبيه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وبقوله عن نفسه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ والشاهد منها الإخبار عن تعليم الله تعالى له علم تأويل الأحاديث ، والمقصود بها أنواع الرؤى الثلاثة التي هي حديث الملك وحديث النفس وحديث الشيطان

السبب الثاني : لأن التعبير من الفتوى والفتوى لا يصح فيها إعمال الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً بخلاف الظن المبني على العلم ؛ قال تعالى عن عزيز مصر أنه قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ فسماها فتوى وشرط عليهم عدم التدخل فيها إن كانوا ليسوا من أهل الإفتاء فيها ، وقال الله تعالى عن الذي نجا من الفتيين : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ فسمياها فتوى ، وقال تعالى عن جواب نبيه يوسف على الفتيين بعد تأويله لرؤياهما : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فسمى سؤالهما استفتاء وتأويله

لرؤياهما فتوى والفتوى لا تبنى على الظن المستقل كما سيأتي التفصيل في هذه المسألة في فصل خاص بها

مبحث في علاقة العلم والوحي

قلنا : إن مذهب القائلين أن التفسير من العلم هو الجامع بين المذاهب الأخرى ؛ لأن العلم قد يعلو حتى يكون وحياً ، وقد ينزل حتى يصير ظناً ، فالعلم الذي يتلقاه الأنبياء من ربهم لا يكون إلا وحياً ولا مانع من قولهم بالظن ؛ فإن ظنهم إن قطعوا به لا يكون إلا يقيناً ، إلا أن ما عبروا عنه بلفظ الظن لا يكون من الوحي ، مع مراعاة التفريق بين أنواع الظن من خلال القرائن فقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ ظن يراد به اليقين ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم في قصة التأبير : (إنما ظننت ذلك ولم أحدثكم به عن الله) ظن يراد به توقع الشيء فقد يوافق الواقع وقد يخالفه كما سبق التفصيل في ذلك .

إذا فالعلم هو الأصل فتعليم الله تعالى لأنبيائه رسالته لأقوامهم كقوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ علم وهو وحي وهذا هو حال جميع الكتب السماوية ، وتعليمه لسائر العباد في قوله : ﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فهذا علم ولكنه ليس وحي

مبحث في علاقة العلم والظن

قال الإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٩ / ١٣٢) :

وحقيقة الظن : عِلم لم يتحقق ؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعدُ ولم يخرج إلى عالم الحس ، وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك . وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقن إطلاقاً حقيقياً . وعلى هذا جرى الأزهري في (التهذيب) وأبو عمرو واقتصر على هذا المعنى ابن عطية . وكلام (الكشاف) يدل على أن أصْل الظن : علم غير متيقن ولكنه قد يُجرى مُجرى العِلْم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام ، وقال : يقال : أظن ظناً كاليقين أن الأمر كَيت وكَيت ، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازاً . وهذا أيضاً رأي الجوهري وابن سيده والفيروز آبادي ، وأما قوله تعالى : ﴿ إن نظن إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ فلا دلالة فيه لأن تنكير ظناً أريد به التقليل ، وأكد ، بـــــ ﴿ ما نحن بمســـتيقنين ﴾ فاحتمل الاحتمالين اهـ

مبحث في تعارض العلم والظن

وبالرغم من تقريري وانتصاري في تسطيري لكون التعبير مبناه على العلم إلا أن ذلك لا يعني أني أنفي دخول الظن في علم التعبير , وإنما وقع نفيي لكون الظن هو المصدر الأصلي له ، وسبق معنا سوق بعض الأدلة التي بينت تباين معاني الظن في الآيات القرآنية التي أنتج تتبعها أن الظن منه المحمود ومنه المذموم بما يجعلنا نخلص أن الظن منه ما يتعارض مع العلم ومنه ما يتوافق معه سواء علم التعبير أو غيره

ولو نظرنا للمسائل الشرعية التي اختلف فيها العلماء وخضع الترجيح فيها للبحث والحكم بعد بذل الجُهد في ذلك ، لرأينا أن المجتهدين فيها على ضربين : أحدهما مجتهد مصيب وله أجران والآخر مجتهد مخطئ وله أجر واحد ، وكل واحد منهما بنى ترجيحه على الظن سواء الظن الذي بلغ به درجة اليقين أو الظن الذي بلغ به درجة التغليب

وفي ضوء ما سبق فالظن الذي ننفيه في علم التعبير هو الظن الذي لم يبنَ على الأُسس العلمية واقتصر على مجرد التخمين والوساوس والكبر وبطر الحق ، فلا ينبغي صرف النظر عن الشيء لمجرد دخول الظن فيه بناء على توهم كون الظن مذموم في كل حال وأن الظان مخطئ في كل الأحوال ؛ فإن هذا أيضاً من الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ، وقد رضي الله تعالى عن الظن الصادق من أنبيائه وهم المبلغون عنه فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)

﴿ **فانظر لهاتين الآيتين البينتين الجليتين فقد تضمنت أولاهما على ذكر (ظن فرعون)**

وتضـمنت ثانيهما على ذكر (ظن موسـى) وبينهما بون شـاسـع ؛ فظن فرعون مقابل رد التسـع الآيات البينات مبناه على الكبر وبطر الحق وتسـويل النفس ، وظن موسـى مقابل صنيع فرعون مبناه القوة المعرفية من الوحي بحال ومآل المتكبرين

وبناء على ما سـبق فليس كل ظن مذموم كما أنه ليس كل ظن محمود ؛ فالتفريق بين نوعي الظن ينتج التفريق الفريقين ، وفي القرآن الكريم بيان هذا التفريق ، ففي قول الجن : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ فهذا الظن سيق في مقام المدح وهو بمعنى تيقنا ، بينما قول العرب المنكرون للمعاد : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فهذا ظن باطل وهو بمعنى الاعتقاد الفاسد وهو أيضاً بمعنى الشك كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّـاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْـتَيْقِنِينَ ﴾ أي ما نظن ذلك إلا ظناً مرجوحاً

وهذا القول يقوله أيضـاً الفلاسـفة الإلهيون الذين يؤمنون بالرب ولكنهم ينكرون البداءة والرجعة ، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية الذين ينكرون الصانع ويعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وانتظر تفسير ابن كثير (٧ / ٢٩٦)

فلو ظن العابر ظناً بمعنى اليقين لقوة ما ظهر له من دلالات الرؤيا فلا بأس بذلك ، ولو ظن ظناً مبناه على غلبة الكفة للجانب الذي ترجح له فلا عيب في ذلك ؛ فقد جاز الاجتهاد في الفتاوى الشـرعية وهي بمثابة التوقيع عن رب العالمين والرؤيا الصـالحة - وإن كانت ذات أهمية ولا يصح بحال التقليل من أمرها والتنقيص من شأنها ؛ فهي من أجزاء النبوة وهي من عند الله تعالى وعبارتها بمثابة التوقيع عنه أن هذه العبارة هي مراد الله تعالى منها- لا تصـل إلى مثابة الفتوى في الشـريعة ، وعليه فالاجتهاد فيها وتغليب الظن بمعرفتها جائز من باب الأولى .. والله أعلم

وعليه فتفسير الكريم يوسف إن قلنا إنه من قبيل الظن ، فإننا نقول : إن الظن منه ما يصح ومنه ما لا يصح بحسب قوته وضعفه بناء على العوامل الحكمية فيه ، ولو كان تفسيره عليه السلام من قبيل الظن لكان من قبيل الظن الذي يصح ؛ لأن الظان بالشيء يقوله بناء على تعارض الأدلة فيه وتغليبه للجانب الأقوى منها ، والأنبياء هم أرجح الناس في الترجيح ، ولا يتعارض هذا مع حديث التأبير لاختلاف نوع الظن هنا وهناك كما سيأتي .

مبحث في

في جواز الخطأ في الظن

إذا كان علم التعبير من العلوم الشـــرعية فأبرز الناس فيه هم الأنبياء ؛ لأن علمهم به من مصدر يفوق مصادر المدارس الأخرى التي تتعلمه من غير المصادر الشرعية سواء المصادر الفطرية أو المصادر المباحة أو المصادر المحرمة ، فإذا كان الأمر كذلك فالظن يقع من العابر حتى وإن كان من الأنبياء ؛ فإن قال قائل : لا يصح الظن من الأنبياء لأن الظن قد يصيب وقد يخطئ وهذا لا يصح بجناب الأنبياء .

قلنا : لا شك عندنا أن منزلة الأنبياء منزلة علية ورغم تفاوتهم في الفضل فأدناهم فضلاً هو أعلى بالفضل من سائر البشرية بل من سائر الثقلين عدا أنبيائها ، وبالرغم من هذا الفضل الكبير وعلو التقدير فهو لا يعنى العصـــمة المطلقة في حقهم في ســـائر شـــؤونهم ، بل تقع عصـــمتهم في شـــؤون الدين فيما يبلغونه عن الله تعالى ، وأما أمور الدنيا فهم كغيرهم من البشـر إلا أن منزلة النبوة جعلتهم في مصـرف عن خسـائس العمل فلا يمكن وقوعه منهم ، وأما الخطأ غير المتعمد أو الظن المبني على غلبة النظر فهو جائز في حقهم ؛ وهو بمثابة النسيان الذي جبل عليه الانسان

فإن قال معترض فما هو قولنا في قول الإمام الكبير والعالم الشهير ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في هذه المسألة حيث قال :

وقال الإمام الطبري رحمه الله

عن قتادة : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوســـف: ٤٢] ، وإنما عبارة الرؤيا بالظنّ فيُحِقُّ الله ما يشاء ويُبطِل ما يشاء.

وهذا الذي قاله قتادة من أنَّ عبارة الرؤيا ظنٌّ، فإنَّ ذلك كذلك من غير الأنبياء ، فأما الأنبياء فغيرُ جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن ثم لا يكون ، أو أنه غيرُ كائن ثم يكون ، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرتْ عنه أنَّه كائن أو غير كائن ؛ لأنَّ ذلك لو جاز عليها في

أخبارها لم يؤمن مثل ذلك في كلِّ أخبارها ، وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها سقطتْ حُجُّتها على مَن أُرسِلت إليه ، فإذا كان ذلك كذلك كان غير جائز عليها أن تخبر بخبر إلاَّ وهو حقٌّ وصِدق ، فمعلوم إذ كان الأمر على ما وصفت أنَّ يوسف لم يقطع الشهادة ، فبين إذًا بذلك فَسَادَ القول الذي قاله قتادة في معنى قوله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ اهـ

قلت : الجواب أن الصواب هو ما ذهب إليه قتادة في قوله : (وإنما عبارة الرؤيا بالظنّ فيُحِقُّ الله ما يشاء ويُبطِل ما يشاء) من عدة أوجه :

الأول : أن قول قتادة ليس فيه أن تعبير يوسف أو غيره محتمل للخطأ بل غاية ما فيه رد علم العبارة لظن ، وسبق معنا أن الظن على درجات فقد يكون من فلان ظن مرجوح ومن آخر ظن راجح ومن الأنبياء ظن بمنزلة اليقين ، ولهذا لم يأت أبداً أن نبي الله يوسف لم يقع ما عبره أو حتى بعض الذي عبره ، وهكذا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كان يعبر الرؤيا بألطف ما يكون من الإشارة وأحسن ما يكون من العبارة ، ولم يخطئ عبارة قط ، وعليه فالظن واحد ومنزلته تتفاوت من أهله فظني أنا جهل وظن العالم ترجيح وظن الأنبياء يقين

الثاني : أن اعتراض الطبري على قول قتادة بقوله : (فأما الأنبياء فغيرُ جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن ثم لا يكون ، أو أنه غيرُ كائن ثم يكون ، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرتْ عنه أنَّه كائن أو غير كائن ؛ لأنَّ ذلك لو جاز عليها في أخبارها لم يؤمن مثل ذلك في كلِّ أخبارها ، وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها سقطتْ حُجُّتها على مَن أُرسِلت إليه)

اعتراض قوي وهو حق إلا أنه لا يتنزل في ما ليس بتبليغ عن الله تعالى سواء في الرؤيا أو في غيرها من أمور الدنيا لعدة أدلة ومنها :

الدليل الأول : أخرج مسلم (٦٢٧٧) عن أنس أن النبي –صلى الله عليه وسلم– مر بقوم يلقحون فقال « لو لم تفعلوا لصلح ». قال فخرج شيصا فمر بهم فقال « ما لنخلكم ».

قالوا قلت كذا وكذا قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم ». وفي لفظ آخر رواه مسلم برقم (٦٢٧٥) أنه قال : « ما أظن يغنى ذلك شيئا » فاللفظ واضح أنه رد الأمر لظنه وليس للشرع ، ولهذا لما أصبحت شيصاً قال لهم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل »

ففي الحديث رد على ما قاله الطبري رحمه الله ؛ لأنه حدثهم بأمر فكان خلاف ما حدثهم وأنه حدثهم به من قبيل الظن وليس عن الله تعالى ، وعليه فلا يلزم من ذلك سقوط حججه على قومه فيما يبلغهم عن الله تعالى ، وقد رددت شبهات منكري العمل بالسنة واستدلالهم بهذه القصة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يخطئ وبين ضلالتهم وسوء مقالتهم بمقالة مختصرة سميتها : (التحبير في تحرير حديث التأبير) لخصت فيها وجازة أقوال العلماء في هذه القصة وبيان سوء غلط المنحرفين في فهمها

الدليل الثاني : عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار)

وهذا دليل واضح الدلالة أن الأنبياء قد يقضون بين الناس بناء على ما ترجح لهم وأنهم قد يقعون في الخطأ ، ويقضون على نحو ما يسمعون من حجة الطرفين لا على نحو الوحي ، فأصل الحكم الشرعي ينقلونه عن الله تعالى ولا خطأ فيه كأن يختلف اثنان في ماعون معين فيدعي أحدهم ملكه وينكر الآخر فالحكم الشرعي هنا أن (على المدعي البينة وعلى المنكر اليمين) ، فقد يكون المدعي هو صاحب الحق ولكنه لا يملك البينة فيقضى للطرف الآخر وللتأكيد بأحقيته – الظاهرة – له يطالب باليمين ، وفي نهاية المطاف أخذ الماعون من ليس له حق به وليس في هذا ما يسقط حجة النبي صلى الله عليه وسلم في قومه ؛ لأنه يقضي

بميزان الحكم وليس بالغيب والوحي ؛ فالأنبياء لا يعلمون الغيب ولو نزل الوحي لإخبارهم بمسـائل القضـاء لعجزت أممهم من الاقتداء بهم في المسـائل الحكمية ؛ لأن القدوة يحكم بالوحي والمقتدي لا وحي له ..

وبهذين الوجهين اتضـح الصـواب في المسـألة في حدود ظن كاتبها فإن كان ظني حقاً فثبتني الله عليه ، وإن كان باطلاً فيسـر الله لي سـبل الخلاص منه والعزوف عنه .. وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

التعبير الفطري (الإلهام)

التفسير الفطري في محدودية علم كاتب هذه السطور ومقصده هو التفسير بالإلهام وعبرت عنه بالفطري ؛ لأنه يشترك فيه العالم والجاهل والمتمكن وغير المتمكن والقاسم المشترك بينهما هو استقامة الفطرة ، إذ لم ير ملهماً فاسقاً في محدودية علمي البتة ، لأن الإلهام معناً من معاني التوفيق وهو وحي الله تعالى لغير الأنبياء ، وسبق معنا أنه على قسمين للمكلفين وغير المكلفين ، وهو في حق المكلفين داخل في الكرامات التي لا ينالها إلا الصالحون ، كما سبق معنا أنه في حق المكلفين على نوعين :

الأول : خطاب يسمعه بإذنه وهو نادر

والثاني : خطاب يقع على الروح ويطمئن له القلب

ولا يدعي الإلهام لغير الصالحين إلا فاسد أو جاهل ، وإن تمكن بعض الأميين من التعبير مع اتصافه بأحوال الفساق فلا يعني ذلك أنه ملهم ؛ إذ قد يكون من قبيل النظرات التوسمية ، وسبب الجهل في هذه القضية هو أن الكثير يخلط بين التفسير بالإلهام والتفسير بالفراسة مع أن بينهما بون شاسع

وحاصل مطروحتنا هنا أنه إذا كان التفسير الفطري للرؤيا من الأمور الممكنة ، فالأنبياء هم أبرع الناس فيه ؛ لاجتماع خصال الخير فيهم ، وكلنا نعلم أن تنبؤهم أصدق وتفرسهم أدق ، وعليه فهم بالإلهام ممن دونهم أحق ؛ إذ لا تستطيع الشياطين العبث بخواطرهم ولا بذر الوسوسة التوهمية في صدورهم ، فصدورهم كالبدر المنير وهي محط للذكر والخير .

التعبير التوَسُّمِي (الفراسة)

والتفسير التوسمي هو التفسير عن طريق الفراسة ، وهي النظر والتأمل في حال الرائي والتوصل لعبارة رؤياه باعتبار حاله ، كما فعل الإمام ابن سيرين رحمه الله عندما سأله رجل : أنه رأى في المنام كأنه يؤذن ، فقال له : تحج ، وسأله آخر أنه يؤذن ، فقال له : تسرق وتقطع يدك !! فقيل له في التأويلين فقال : رأيت على الأول سيما حسنة فأولت قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ ولم أرض هيئة الثاني فأوّلت قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فإذا نظرت لرأيت أن الرؤيا واحدة ولكن تأويلها متعدد حسب حال الرائي ووقع التمييز بين حال الأول وحال الثاني عن طريق الفراسة والتأمل

وعبرت عنه بالتعبير (التوسمي) اقتداء بالقرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾

والتوســـم عند العلماء يدور بين التفرس والتأمل والنظر ، ولهذا قيل في تفســـير قوله : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّـمِينَ ﴾ للمتفرســين ، وقيل : للمتأملين ، وقيل : للناظرين ، وقيل : للمعتبرين ، ولا مانع أن تكون كلها صحيحة ، ولهذا جمع بعض المفسرين جميع هذه المعاني

قال الإمام ابن القيم في المدارج (٢ / ٤٦٢) :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الفراسة قال الله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ قال مجاهد رحمه الله : المتفرسين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : للناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقال مقاتل : للمتفكرين . ولا تنافي بين هذه الأقوال فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم : أورثه فراســـة وعبرة وفكرة ، وقال تعالى في حق المنافقين : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ فالأول : فراسة النظر والعين والثاني : فراسة الأذن والسمع اهـ

وقال العلامة الشنقيطي في الأضواء (١٦ / ٧١) :

فعن قتادة : ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : المعتبرين ، وعن مجاهد ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : المتفرسين ، وعن ابن عباس والضحاك : ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : للناظرين ، وعن مالك عن بعض أهل المدينة ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : للمتأملين ، ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد ، وكذلك قول ابن زيد ومقاتل : ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : للمتفكرين ، وقول أبي عبيدة : ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : للمبتصرين ، فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو

أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل وإطلاق التوسم على التأمل والنظر والاعتبار مشهور في كلام العرب اهـ

وقال الإمام الطبري في تفسيره (١٧ / ١٢٠) :

يقول : إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم ، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلامات ودلالات للمتفرّسين المعتبرين بعلامات الله ، وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به . وإنما يعني تعالى ذكره بذلك قوم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، يقول : فلقومك يا محمد في قوم لوط ، وما حلّ بهم من عذاب الله حين كذّبوا رسولهم وتمادوا في غيهم وضلالهم مَعْتَبَر اهـ

وقال أبو الحسن النيسابوري الشافعي في التفسير البسيط (١٢ / ٦٣٩) :

يقال : توسمت في فلان خيراً ، إذا رأيت فيه أثراً منه ، وتوسمت فيه الخير أي تَفَرَّسْت (إلى أن قال) قال أبو إسحاق : وحقيقته في اللغة ؛ المتوسمون النُظَّارُ المُتَثبِّتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء ، فالمتوسم : الناظر في السمة الدالة ، تقول : تَوَسَّمْتُ في فلان ، أي : عرفت ذلك فيه بالنظر اهـ

وقال الإمام القرطبي في تفسيره (١٠ / ٤٣) :

قال العلماء : التوسم تفعل من الوسم ، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها . يقال : توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم : إني توسمت فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أني ثابت البصر

وقال أيضاً (١٠ / ٤٣) :

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره ، وذاك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر. زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نهشل عن ابن عباس" للمتوسمين" قال : لأهل الصلاح والخير. وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هي استدلال بالعلامات ، ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر اهـ

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (١ / ٥٥٧) :

الخامسة : أنهم يعرفون بسيماهم ، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها ، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل أنهم أغنياء ؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمر ، والعارف هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم ، فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ اهـ

وقال العلامة السعدي في تفسيره (١ / ٤٣٣) :

أي : المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراسة ، يفهمون بها ما أريد بذلك من أنّ من تجرأ على معاصي الله ، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة ، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات ، كما تجرأوا على أشنع السيئات اهـ

قلت : ومن أنفس وأعذب ما قرأت في تفسير هذه الآية هو تفسير العلامة الكبير المشهور الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حيث قال وما أحسن قوله

وقال العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (٤ / ٦٥) :

(والآيات) في قوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ بمعنى دلائل ســـوء نوايا هذه البطانة كما قال : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ ولم يزل القرآن يربّي هذه الأمّة على إعمال الفكر ، والاستدلال ، وتعرّف المسبَّبات من أسبابها في سائر أحوالها : في التَّشريع ، والمعاملة ليُنشئها أمَّة علم وفطنة ، ولكون هذه الآيات آيات فراسةٍ وتوسّم ، قال : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ ولم يقل : إن كنتم تعلمون أو تفقهون ، لأنّ العقل أعمّ من العلم والفقه اهـ

ونتيجة مبحثنا هذا في التعبير التوسمي أن الفراســـة ممكنة الوقوع في عبارة الرؤيا ، وأنه إن أمكن وقوعها من غير الأنبياء فوقوعها من الأنبياء من باب أولى ؛ لأن الفراســـة دليل على الذكاء والفطنة ، وصفاء العقل والقلب ولن يكون التابع أحق بذلك من المتبوع ، كما أنه لا يمكن أن يكون الفرع أكمل من الأصـــل ولا الجزء أشمل من الكل ، وإذا جاز ذلك في حق الأنبياء دل أنه لا لزومية لكون تعبيرهم للمنام مأخوذ من الوحي وهكذا نتسلسل حتى نصل أن الأنبياء قد يعبرون بالظن وإن كان هذا ليس هو ديدنهم الدائم في التعبير

نماذج من فراسة الصالحين

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٠ / ٤٤) :

- ومثله قول ابن عباس : ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه
- وروي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجاراً ، وقال الآخر: بل حداداً ، فتبادر من حضـــر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً وأنا اليوم حداد .
- وروي عن جندب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سمع سمع الله به ، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرضـــت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حروريا ، فكان رأس الحرورية واسمه مرداس .
- وروي عن الحســـن البصـــري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا ســـيد فتيان البصـــرة إن لم يحدث ، فكان من أمره من القدر ما كان حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة ، ولم يستثن .
- وروي عن الشـــعبي أنه قال لداود الأزدي وهو يماريه : إنك لا تموت حتى تكوى في رأسك ، وكان كذلك .
- وروي أن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه دخل عليه قوم من مذحج فيهم الأشـــتر، فصعد فيه النظر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث. فقال : ما له قاتله الله ! إني لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا ، فكان منه في الفتنة ما كان .
- وروي عن عثمان بن عفان رضـــي الله عنه : إن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مر بالســـوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنى فقال له أنس : أوحياً بعد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ؟ فقال : لا ولكن برهان وفراسة وصدق

ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين اهـ

واكتفيت بذكر هذه المنقولة عن هذا الإمام دون البحث والتحري عن مصـــادرها وصـــحتها لأدع ذلك للقارئ اللبيب ، مع ربي وتهيبي من قصـة عثمان مع أنس رضـي الله تعالى عنهما ، وأما من أراد النظر أكثر في أحوال المتفرســين فليرجع للكتب المهتمة بذلك ، وقد ذكرت جملة رائعة في كتابي (الأدب والعجب من أخبار من قد ذهب) وهو مخطوط من قبل ثماني سنوات تقريباً يسر الله تعالى إخراجه ونفع العباد به

الفراسة والقضاء
في مسائل الأحكام الشرعية

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٠ / ٤٤) :

قال القاضي أبو بكر بن العربي : إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس . وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية أيام كان قاضياً ، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءاً في الرد عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ، فإن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست الفراسة منها اهـ

قلت : وهذا محسوم بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ وكمال الدين مبناه على الوحي وهو القرآن والسنة ، وكل دين يؤخذ من غيرهما فهو باطل ، وكما نقرر عدم أخذ الأحكام الشرعية من الفراسة كذلك لا تؤخذ من تعبير المنامات سواء عبرها العابر بالفراسة أو بأي طريقة من طرقها ؛ لأن الرؤيا بشارة ونذارة وليست تشريعية ، وكل من أخذ عبادة عن طريق الرؤيا فقد وقع في ضلالات متعددة منها

- اتباع سبيل الشيطان وهو طريق إلى النار
- الوقوع في الابتداع بالدين وهو ضلالة وكل ضلالة في النار
- التشبه بالصوفية وأضرابهم ومن تشبه بقوم فهو منهم

إلى غير ذلك من اللوازم الضارة بالإنسان في دينه ودنياه

الفرق بين الفراسة والظن

قال الإمام ابن القيم في الروح (صـ / ٢٣٨) :

فصـل : والفرق بين الفراسـة والظن أن الظن يخطئ ويصـيب ، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره ، وطهارته ونجاسـته ، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضـه إثم ، وأما الفراسـة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : أي للمتفرسين ، وقال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسـيماهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو نشـاء لأريناهم فلعرفتهم بسـيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ فالفراسـة الصـادقة لقلب قد تطهر وتصـفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه اهـ

قلت : بل الظن والفراسة يشتركان في كون صاحبهما يخطئ ويصيب إلا أن الظن الذي يراد به خلاف اليقين أكثر عرضة للخطأ بخلاف الفراسة ، وهذا هو ما قرره ابن القيم نفسه فلا يفهم من كلامه السابق : (والفرق بين الفراسة والظن أن الظن يخطئ ويصيب) أنه يعنى أن الفراسـة تصـيب ولا تخطئ ؛ وهذا ما قرره في كتابه الروح (صـــــ / ٤٠) : ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطئ ذلك اهـ

الفرق بين الفراسة والإلهام

قال الإمام ابن القيم في المدارج (١ / ٤٤) :

فصل المرتبة التاسعة مرتبة الإلهام . قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم : (قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)

وقد جعل صاحب المنازل الإلهام هو مقام المحدثين قال وهو فوق مقام الفراسة لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتاً أو استعصت عليه والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد

قلت : التحديث أخص من الإلهام ؛ فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان ، فأما التحديث فالنبي قال فيه : (إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر) يعني من المحدثين ، فالتحديث إلهام خاص وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين كقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وقوله : ﴿ وإذ أوحيت

إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ وإما من غير المكلفين كقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ فهذا كله وحي إلهام ، وأما جعله فوق مقام الفراسة فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم والنادر لا حكم له ، وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد يعني في مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا أن كل واحد من الفراسة والإلهام ينقسم إلى عام وخاص وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً ، ولكن الفرق الصحيح أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تنال بكسب البتة اهـ

أقسام المعبرين
وطبقاتهم في طريقة ومصدرية التعبير

بعد النظر في ما كتبه غيري والتحقق في الواقع الذي رأيته بأم عيني توصلت إلى أن المعبرين الموجودين في الساحة على خمسة أقسام : المقتصد والمستند والمستمد والمبتعد والمجتهد ، وهذه الاصطلاحات أتيت بها من كيسي إلا أن مضمونها متواجد في الواقع المعايش ، وإليكها على التفصيل التالي :

القسم الأول : القسم المقتصد :

وهو الاقتصـاد المذموم [٢] وصـاحبه يعتمد في تفسـيره على فك بعض الرموز دون بعض ، وهذا لاشك أن فيه اعتداء على الرؤيا وعلى الرائي ؛ لأن الأصل في الرؤيا أنها واقع متكامل لا يقبل التجزئة وصاحب هذا القسم لا يصل بالرائي إلى نتيجة معتبرة من رؤياه .

مع التنبيه أن هذه الطريقة قد يسلكها المعبر الفطن أحيانا إلا أنها لا تكون ديدنه الدائم كما في تفسير أبي بكر الصديق للرؤيا وقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام له : (أصبت بعضا وأخطأت بعضا) قال والله لتخبرني بالذي أخطأت ، قال : (لا تقسم) فاقتصد النبي صلى الله عليه وسلم بتفسير بعضها واهمال بعضها ؛ للمصلحة الراجحة وقد سبق بيان ذلك في رسالتنا الأم (آلات وأدوات تفسير المنامات) .

والفرق بين المفسر الممدوح والمذموم في هذا القسم هو أن المذموم يقدم على تفسير بعض ما اتضح له من الرؤيا والسكوت عن بقيتها لعدم علمه بها مع إمكانية أن تكون النتيجة في القسم الذي لم يتضح له من نفس الرؤيا فيكون قد تعدى على علم الرؤيا وعلى الرائي معاً ، والممدوح يقدم على تفسير بعضها واهمال بعضها مع علمه بها كلها وإنما أهمل البعض للمصلحة مع عدمية اختلال الرؤيا بإهمال القسم المسكوت عنه منها .

٢() قال الزبيدي في تاج العروس (١ / ٢٢٠١) : ومن الاقتصاد ما هو محمود مطلقا وذلك فيما له طرفان : إفراط وتفريط كالجود فإنه بين الإسراف والبخل وكالشجاعة فإنها بين التهور والجبن . وإليه الإشارة بقوله " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا " ومنه ما هو متردد بين المحمود والمذموم وهو فيما يقع بين محمود ومذموم كالواقع بين العدل والجور وعلى ذلك قوله تعالى : " فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد " انتهى . وفي سر الصناعة لابن جنى : أصل ق ص د ومواقعها في كلام العرب : الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور هذا أصله في الحقيقة وإن كان قد يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل ألا ترى أنك تقصد الجور تارة كما تقصد العدل أخرى ؟ فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعا اهـ

قال الحافظ المناوي في التعاريف (١ / ٥٨٣) : القصد استقامة الطريق ومنه الاقتصاد وهو فيما له طرفان إفراط وتفريط اهـ

القسم الثاني : القسم المستند :

وصاحب هذا القسم يستند في عبارة الرؤيا على ما جاء في الكتب السابقة ، وهذا الفعل فيه اعتداء على واقع الرائي ؛ فإن رموز وأحداث الرؤيا تختلف (غالباً) باختلاف وقائعها المكانية والزمانية ، وقد تكلمنا في رسالتنا الأم عن القرائن الثلاث للحكم على الرؤيا وهي : قرينة حال الرائي وقرينة زمن الرؤيا وقرينة أحداث الرؤيا ، ولهذا (يغلب) أن واقع الرائي المعاصر بائن عن واقع الرائي القديم في الكثير من أحواله ، والمفسر من هذا القسم يصل بالرائي إلى نتيجة ولكنها غير صحيحة .

القسم الثالث : القسم المستمد :

والمستمد على قسمين : فأحدهم من يتلقى ذلك عن طريق ايحاء ووساوس الأرواح الخبيثة ، وآخرهم من يتلقاه عن طريق الالهام ، ونحن وإن كنا لا ننكر حقيقة الإلهام في تعبير الأحلام إلا أننا نحتاط كثيراً من ولوج الليل في النهار واختلاط النسيم بالغبار ؛ ولهذا نعود للأصل فنقول : إن من رأى رؤيا فالأصل فيها أن يسأل عنها عالماً أو ناصحاً كما وجهت بذلك النصوص وليس فيها البحث عن الملهمين وسؤالهم ؛ لأنه لا يوجد في التعبير شيء اسمه التعبير بالإلهام بالشكل المطلق ، وغاية ما في الأمر أن العالم بالعبارة قد يلهم تارة ويعرفها عن غير الالهام تارة أخرى ، وأما الجاهل الملهم فإنه يلهم تارة ويتعثر أخرى ، وهذا هو الفرق بين من يملك مفتاحاً ومن يملك مفتاحين !!

وصاحب هذا القسم اعتمد في عبارة الرؤيا على ما تمده الأرواح الشيطانية بالتعبير وهو على نوعين أحدهما له ارتباط بالرؤيا والآخر ليس له ارتباط بها ولكنه يذهل الرائي بكشف بعض خفياته وخصوصياته فيظنه من التعبير وهو على خلاف ذلك

والعابر الجاهل الذي يدعي معرفته بعبارة الرؤيا عن طريق الالهام وأنه ما تأتيه من رؤيا إلا ونزل عليه الالهام بعبارتها فهو محتضر تعبث به الشياطين وهو يعبث برؤى المسلمين ؛ ومما لا

يخفاكم أن الجاهل تستطيع الشياطين أن توحي له الاضرار بالمسلمين عن طريق التفسير وهو يظن ذلك من قبيل الالهام الإلهي ولهذا قلنا بلزومية العلم لأنه الحَصـــان وســـور الأمان من ذلك .

القسم الرابع : القسم المبتعد :

وهو قســـم ابتعد عن منهج الحق في معرفة الرؤيا فليســـت الرؤيا عنده إلا حالات نفســـية وأخلاط بدنية فهو دائماً ما يراها من هذا القبيل دون تفريق بين أنواعها ، وقد بين أهل العلم أنه لم ينكر الرؤيا إلا الملاحدة وأضـــراب من المعتزلة ويكفي بعدهم دلالة على بعد معرفتهم بالعلم وسعة جهلهم ، فلا عبرة بإنكارهم .

القسم الخامس : القسم المجتهد :

وصـاحب هذا القسـم هو المقصـود بالحديث النبوي : (لا تقصـص رؤياك إلا على عالم أو ناصـــح) وهو قســـم اعتمد في عبارة الرؤيا على النظرة التكاملية فبذل جهده ووقته لتعلم آلات وأدوات التعبير وآليات اسـتخدامها بادراك الأصـول والقواعد ، والوصـول للفوائد . فهو مجتهد في معرفة الرموز وتمييزها ، وكيفية جمعها واســـتخلاص الصـــحيح منها ، وكيفية ربطها والتنسيق بينها ، وكيفية فكها وحل ألغازها ، وبهذا أوصله اجتهاده للقوة المعرفية بها .

وأما إن زاده الله تعالى على ذلك قوة في تصـويب السـهام عن طريق التوفيق والالهام ، وزاده بلغة فوق الدراسـة أن جعله داهية في النباهة والفراسـة ، فهذا من فضـل الله العظيم يؤتيه من يشاء من عباده وهو أحكم الحاكمين

وأخيراً

لم يكن القصد من تدوين هذه الرسالة سوى الحديث عن مصدر تعبير الكريم يوسف وهل هو من الوحي أم من العلم أم من الظن ، ثم رأى القلم متنفسه في الموضوع فجرى حتى بلغ

المقصود وزاد عليه ما هو في بابه ، وقد ارتضيته بهذا الاختصار لتناسبه مع هم الكثير من أبناء هذا العصر وأنا منهم

وختاماً : أتقدم بالشكر والعرفان للشيخ الفاضل علي بن محروس الحبيشي جزاه الله خيراً وبارك فيه ؛ فقد تفضل بقراءة هذه الرسالة وأفادني بتصحيح الكثير من الأخطاء التي كنت في غفلة عن بعضها وعلى جهل ببعضها الآخر ، فلله دره وعليه أجره

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه السطور سطراً سطراً ، وأن يكتب لي بها أجراً ،ى وأن يمحو عني بها وزراً ، وأن يتقبلها مني كما يتقبل من عباده الصالحين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

كتبه

في السابع والعشرين من ربيع الآخر لسنة ألف وأربعمائة وأربعين من الهجرة النبوية

أبو العباس أنور بن محمود الرفاعي

غفر الله له ولوالديه